العدد (1839) السنة السابعة - الاثنين (5) تموز 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

في رحيل المرجع الديني العلامة محمد حسين فضل اللّه

عبر مثقفون و سياسيون عراقيون عن حزنهم لرحيل المرجع الديني اللبناني محمد حسين فضل اللّه الذي توفي امس الاحد في مستشفى بلبنان.
وتوفي آية اللّه محمد حسين فضل اللّه عن عمر يناهز الـ ٧٥ عاماً بعد صراع طويل مع المرض. وقال مصدر في مستشفى بهمن، حيث نقل فضل اللّه إليه منذ يومين، إن فضل اللّه توفي بعد أن أصيب بنزيف داخلي. وكان فضل اللّه، الذي كان معروفاً بالفتاوى المتقدمة واعتماده العلم في تكوين آرائه وإصدار فتاويه، يعاني من مرض في الكبد، إلا أن حالته تدهورت وأدت الى رحليه.

الرئيس طالباني: الفقيد أغنى الأمة الإسلامية بعلمه الوافر

رئيس الجمهورية جلال طالباني وجه برقية تعزية ومواساة إلى العالم الإسلامي بوفاة آية الله العظمى العلامة محمد حسين فضل الله جاء فيها:
بمزيد من الحزن والأسى تلقينا نبأ رحيل العلامة آية الله العظمى سماحة السيد محمد حسين فضل الله الذي شاءت إرادة الحق جلّ في علاه أن يصطفيه إلى جواره ورحمته، بعد حياة مشرَّفة بالنبل والعلم والكرامة.
إن رحيل العلامة فضل الله ثلمة كبيرة تعرض لها العالم الإسلامي، وهو الذي أمضى عمره في سبيل استنهاض طاقات الأمة وانتهاج طريق الاعتدال والتجديد ولم شمل المسلمين على موقف ينفتح على الاصلاح، والاخلاق النبيلة، وبرحيله خسر العالم الإسلامي خسارة كبيرة لا تعوض.
إن الفقيد الغالي ومنذ ولادته المباركة في العراق، وتدريسه العلوم الدينية في حوزة النجف الأشرف، ثم مغادرته إلى بيروت وخوضه غمار العمل السياسي والديني، أغنى الأمة الاسلامية بعلمه الوافر، وربى جمعاً كبيراً من العلماء والفضلاء، وكان يحظى بشخصية عالم دين متميز، وفقيه متنور، وعلم جليل من أعلام الامة.
نعزي العالم الإسلامي، ونعزي الشعب اللبناني الشقيق، ومقلدي ومحبي الراحل الكبير وعائلته الكريمة، مبتهلين إلى الباري سبحانه أن يتغمده برحمته الواسعة، ويسكنه فسيح جناته، ويلهمنا جميعا الصبر والسلوان.

الرؤية النقدية الإنسانية في تفكير السيد محمد حسين فضل اللّه

□ د. عبدالجبار الرفاعي

في مطلع السبعينيات من القرن الماضي وعندما كنت طالبا في بغداد تعرفت على فكر السيد محمد حسين فضل الله، عبر كتابه ((اسلوب الدعوة في القرآن)) و الافتتاحية الثانية لمجلة((الاضواء))، اذ كانت الافتتاحية الاولى تحت عنوان ((رسائلنا)) يكتبها السيد الشهيد محمد باقر الصدر، وعادة ما كانت الاضواء تعززها بافتتاحية لاحقة، بعنوان ((كلمتنا)). وميزة((كلمتنا)) هي ما يتصدر النص من عبارة قصيرة مكثفة، بمثابة لافتة يصوغها السيد فضل الله ، مثل((العمل اولا)) ((التجرية ابدا)) وغير ذلك، وتتمحور المادة المكتوبة حول هذة اللافتة الشعار، ولا تنشغل باستلهام الماضي، أوالحديث عن أمجاد الأمة، وتفوق صحابة النبي(ص) وعصرهم على ما سواه من عصور لاحقة، كانت حركة التاريخ فيها تراجعية، تنحط دائما و تتقهقر حسبما صوره لنا سيد قطب فيما اسماه ((جيل قراني فريد)) في كتابه ((معالم في الطريق))الذي اغرقني في سلسلة من الأحلام و اليوتوبيات، حينما طالعته قبل ذلك بعامين.
كان هاجس كتابات فضل الله هو الراهن، وما يحفل به الاجتماع الاسلامي من تناقضات وملابسات ومشكلات ، فيسعى الى اكتشافها وتحليلها ونقدها. لم يقع اسير تمجيد السلف، والثناء على أخطاء التاريخ، والانشغال بتحويل الهزائم الى انتصارات، و تقديس كل ما يتضمنه التراث، وانما تسلح بمنظور نقدي حجاجي، لا يكف عن مقاربة الموروث والواقع برؤية تحليلية نقدية ، والوقوف على ما يكتنفه من ثغرات بكل جرأة.
لا يكف السيد فضل الله في محاضراته و خطبه و كتاباته عن النقد و المراجعة، وقد تعلمت منه مثلما تعلم غيري من شباب الحركة الاسلامية وقتئذ، التفكير النقدي، والمغامرة في اثارة الاستفهامات ، فقد كان مسكونا بالتساؤل، وظل يشدد على ضرورة طرح الأسئلة، ويحث على ان السوال مفتاح المعرفة، وما من سؤال الا وله اجوبة . لقد خرجت من السجن المعرفي الأول بمطالعتي لآثاره.
منذ ان التقية للمرة الأولى قبل ثلاثين عاما تقريبا ، كان يحثني على المضي بتحديث التفكير الديني، وطالما حدثني عن تجاربه الخاصة في هذا المضمار، وما واجهه من رفض واستنكار وتقريع وتشهير وممانعة. وحتى في زيارتي الاخيرة له قبل شهرين، لم يمنعه تدهور حالته الصحية ، ووهن قواه البدنية، من الحديث عن خطواته الاولى في الحوزة العلمية في النجف الاشرف قبل ستين عاما، ومسعاه للاصلاح والتغيير بمعية السيد الشهيد مهدي الحكيم ومجموعة من زملائه يومئذ.
كان يتطلع الى النجف ، ويعلق عليها الكثير من الآمال في نهضة الامة، ويحث على التواصل مع المصلحين في الحوزة العلمية فيها واستلهام رؤاهم ومواقفهم، كالسيد محسن الامين، والشيخ محمد رضا المظفر، والسيد محمد تقي الحكيم ، والسيد الشهيد محمد باقر الصدر.
فيما استمعت منه وقرأت له وجدت النزعة الانسانية تسود تفكيره الديني، فهو يدعو الى ما يصطلح عليه ب((دولة الانسان))، ويؤشر على الابعاد الانسانية في الدين، ويمكننا العثور على فتاوى متعددة في مدونته الفقهية ، ربما خالف بها المشهور ، تحيل الى المنحى الانساني في تفكيره الفقهي، كما في فتواه المخالفة للمشهور ب((طهارة مطلق الانسان)).
وقبل عشرة اعوام ناقشته في فتوى ((سن بلوغ الفتيات بعمر تسع سنوات)) واشرت الى الابعاد البيولوجية الطبيعية والسيكولوجية للبلوغ، وكذلك الابعاد الاجتماعية، وما يرتبط بذلك من وجود بعض الفتاوى في التراث الفقهي تنص على ان سن بلوغ الفتاة هو ١٣ أو ١٤ أو ١٥ سنة، كما اشار لذلك الشيخ الطوسي في المبسوط وغيره من الفقهاء. وقلت له: سيدنا ان تكليف الفتاة بعمر تسع سنوات قد يفضي الى التكليف بما لايطاق، خاصة في القرى والارياف مع عمل الفتيات بالفلاحة تحت الشمس في القيظ ، ونهار الصوم يتجاوز ١٦ ساعة. فأجاب: أعدك بأني سأبحث هذه المسألة بدقة وعمق، واحاول ان اخلص الى موقف فقهي مستدل فيها. وعندما زرته بعد عام من ذلك التاريخ اهداني كتابه في((بلوغ الفتيات)) الذي قرر فيه المدارك الفقهية والادلة لفتواه البديلة بسن البلوغ الشرعي المتناسب مع سن البلوغ الطبيعي البيولوجي والسيكولوجي للفتاة.
وهكذا اهتم بآراء الخبراء في الفلك ، واعتمد على خبرتهم في تحديد بداية الشهور القمرية والصوم والعيدين الفطر والاضحى.اتسم تفكير السيد محمد حسين فضل الله بمواقف نقدية صريحة، واستيحاء للنزعة الانسانية، وتوظيف شيء من المعطيات العلمية ، في تفسيره وفقهه ومواقفه وآرائه وعلاقاته الاجتماعية.

رحيل عالم

■ قاسم محمد عباس

لم يكن أخْرويا بالمعنى الرافض للحياة بوصفها نعمة إلهية، ولم يكن دنيويا بالمعنى المُبعِد لقيمة الروح الانسانية في وجودها الارضي.. بل كان مسافة تفصل وتجمَع بين عالمين قدمهما آية الله العظمى العلامة محمد حسين فضل الله في صورة تعبر عن حقيقة الانسان وجوهر علاقته بالله، لم يكن يسعى في رحلة نضاله العلمي والديني والسياسي إلى أمجاد شخصية بقدر ما كان مهموما بمراجعةِ التراث المذهبي وفحصه،واستحداث مواقف تنسجم وروح العصر،فضلاً عن اهتمامه بعذابات المحرومين ، منشغلا بالبحث عن وجود فاعل ومؤثر للقيم الاسلامية في عالمنا المعاصر .. لذا لم يتجنب المعالجات العميقة التي كانت تؤدي لاستنتاجات مغايرة .. ولم يكن ليسمح ان يشطب على أهمية التجديد والاستنارة ومراجعة مساحات اشكالية تفعل فعلها الى اليوم في الوجدان الديني بصوره الشعبية ، لكنه في الوقت ذاته لم يكن ليختزل الحياة بفكرة مادية مبسطة ، انما اختار الاخلاص والتفاني والعدل باعتبارها قيمة كبرى في الضمير الاسلامي ..
لقد تعرض العلامة فضل الله لمحن عدة ، ومر بظروف معقدة بسبب بعض مواقفه ، لأنه كان عارفا بمكامن الخلل في طبيعة المشكلات الثقافية التي تعيشها ثقافتنا الاسلامية ، فلم يصف الجو بينه وبين الفضاء التقليدي بسبب طروحات واجتهادات كانت تعبر عن رغبة في تضييق مساحات التقاطع والتشتت، والبحث عن مشتركات تمثل الأمل الواقعي لاستمرار تأثير القيم الاسلامية ونظامها الاخلاقي في العالم المعاصر.. لقد مر الراحل بتحولات عدة ، من نشأته في مناخات مدينة النجف .. وتلقيه لتعليمه الاساسي في حوزاتها وتدريسه فيها لمدة، ثم مغادرته الى لبنان ليكون في موقع الاب الروحي لتأسيس الحركة الاسلامية ، وابتعاده عن النشاط السياسي بعد ذلك للتفرغ لمعرفة حاجات الناس والالتصاق بهمومهم.
برحيل العلامة محمد حسين فضل الله نستعيد سيرة حياة رجل دين من طراز فذ ، وعالم دين متنور ، وفقيه استضاء بنور نعمة العقل، ومزج كل تلك الخصال في شخصية عالم دين معاصر صرف سنواته من أجل استحضار القيم الاسلامية ودورها في حياتنا الراهنة ، لاستنهاض طاقات العالم الاسلامي وزجها في مخاض صنع مصير الاجيال، واختبار تأثيرهذه المواقف في صنع الحياة إلى جنب الدين.
فعبر صوت الاعتدال والتجديد ، تمكن فضل الله من التأسيس لموقف انفتاح على الاصلاح ..ليتحول الى ظاهرة تركت بصماتها على قطاعات كبيرة من مجتمعنا الاسلامي .. فمنذ بداياته في أزقة النجف الاشرف الى ربوع لبنان مرورا بخوض غمار النضال السياسي ،وتجربة تصديه للدرس الديني أغنى محمد حسين فضل الله مجالات الحياة العلمية والثقافية بتجربة كبرى .. وترك بصماته واضحة على جمع كبير من العلماء والتلامذة.. وهو ما جعله يترسخ في شخصية عالم الدين المميز ، المتنور ، الداعي للحوار ، المتصدي لاعداء الاسلام،الناقد للكثير من الروايات، هذا المحمّل بالمعنى الانساني الداعي للانطلاق من أسر الخلافات إلى البحث عن مشتركات تسمح لذاكرتنا الاسلامية بصياغة موقف جديد يغادر التاريخ الى الواقع .
لقد كان لانعكاس شعاع شخصيته على شرائح واسعة من المسلمين بمختلف مشاربهم ومذاهبهم ، دوره في الانتصار لصوت العقل الناقد وتنقية مساحات مكتسبة من ادبياتنا الدينية.. الملتزم بنوع من الوفاء لقيمة الانسان الذي كرمه الله بوصفه خليفة في الارض..بالانتصار للحقيقة الجوهرية الاسمى ، وسعى فضل الله جاهدا للارتقاء بالفكر الاسلامي وتمظهراته كممارسة ومعرفة .. وهو ما دفع به الى قلب محن وازمات عدة .
ففضل الله العالم ، والمرجع ، والعلامة إلى جانب صفاته الدينية والعلمية هذه جمع صفات طيبة اخرى كالمعاملة الطيبة والابوية مع الناس وطلبة العلوم الدينية، فحظي بشخصية ملفتة لها حضورها الفاعل في مختلف الازمات التي مرت بها بلدان المنطقة ... سنبقى نتذكر وجهه المشرق الذي تضمن الوقار والبساطة والاخلاص والتسامح والانفتاح على آلام الاخرين .. سنبقى نتذكر تلك الحياة المشرّفة بالنبل والشجاعة والنضال والكرامة .

عادل عبد المهدي: في رحيل فضل اللّه خسارة كبيرة للأمة الإسلامية

صالح الحيدري: الفقيد جمع العلم والعمل والفقه مع السياسة

□ بغداد / المدى

عبر سياسيون ومثقفون عراقيون عن حزنهم لرحيل المرجع الديني اللبناني محمد حسين فضل الله الذي توفي امس الاحد في مستشفى بلبنان عن عمر يناهز الـ ٧٥ عاماً بعد صراع طويل مع المرض.
وقال مصدر في مستشفى بهمن، حيث نقل فضل الله إليه منذ يومين، إن فضل الله توفي بعد أن أصيب بنزيف داخلي.
فقد بعث نائب رئيس الجمهورية عادل عبد المهدي برقية عزاء الى العلامة السيد علي فضل الله نجل المرجع الراحل وأسرته الكريمة قدم فيها التعازي والمواساة بفقد هذا العالم والمرجع الجليل.
وقال إن رحيل العالم الفاضل السيد فضل الله هو خسارة كبيرة ليس لعائلة آل فضل الله فحسب بل هو خسارة للأمة الإسلامية وللشعب اللبناني الشقيق.
من جانبه قال السيد صالح الحيدري رئيس ديوان الوقف الشيعي لـ((المدى)) ان السيد رحمه الله قد جمع العلم والعمل والفقه والعقيدة مع السياسة والاجتماع، جمع بين الثقافة وبين فقرات كثيرة من المعرفة ساعدته على اتخاذ المواقف من أجل لم الأمة الإسلامية والعربية ، مضيفا ان السيد محمد حسين فضل الله هو قبل كل شيء ولد في العراق في النجف الاشرف وهو في نفسه وروحه عراقي استوطن لبنان ، كانت له مواقف سياسية متوازنة أدت في أحيان كثيرة إلى تهدئة كثير من المشاكل والأزمات كان هو مرجعا لحلها .
واوضح ان هناك الكثير من مؤلفاته المتنوعة والمتشعبة والكثيرة فله تفسير للقران الكريم بأسلوب حديث يعتمد على الدراسات الحديثة في القرآن الكريم ولديه ايضا كتب اسلامية متنوعة وكثيرة، وغالبية مؤلفاته تدعوالى توجيه الناس بالمفاهيم الاسلامية الحديثة .
ويذكر أن السيد محمد حسين فضل الله ولد في ١٩٣٥ في النجف الاشرف واكمل دراسته الفقهية والحوزوية فيها، وعندما يلتقي ويستفسر عن اقرانه في الحوزة العلمية يبدو كثير الاهتمام بالشان العراقي .
فيما قال القيادي في حزب الدعوة الاسلامية خالد الاسدي ان الراحل نذر عمره خدمة لقضايا الاسلام، وكان رائدا ومجددا في مسيرة الاصلاح والاجتهاد والفقه.
ووصف الاسدي فضل الله بانه مجسر للعلاقة بين الحاضر الواقع والماضي المتأصل. وقال انه مدرسة كبيرة نهلت من مدينة النجف الأشرف اصولها وجذرت لمرجعية أصيلة في الفكر الاسلامي.
اما القيادي في تيار الاصلاح الوطني فالح الفياض فقد عدّ رحيل المرجع اللبناني حدثا مؤسفا للعالم الاسلامي، وقال الفياض ان الراحل كان رجلا مؤمنا بالحوار مع الآخر غنيا بالقاعدة الروحية التي يمتلكها.
ووجد الفياض في الراحل فيلسوفا وابا وقائدا وجامعا على المستوى اللبناني والساحة العربية والاسلامية.
من جانبه، قال الباحث والمفكر غالب الشابندر ان وفاة المرجع محمد حسين فضل الله خسارة كبيرة للفكر الاسلامي، فقد كان مناضلا من اجل الحرية، خاصة حرية الكلمة.
الشابندر أشار إلى أن المرجع الراحل كان يشكك بالكثير من المفاهيم الدينية التقليدية فهو يخالف الحكم القاضي بقتل المرتد كما انه افتى بطهارة كل البشر وبذلك يكون قد صدم العقل الفقهي الجامد.
واضاف الشابندر ان فضل الله كان من دعاة تضييق المساحة القدسية بالنسبة الى أئمة الكثير من التراث الشيعي، كما انه نقل اللغة الفقهية من لغة المصطلحات الصعبة الى لغة التداول الشعبي متأثراً في ذلك بلغة المفكر الشرق الكبير محمد باقر الصدر.
ونوه الشابند الى ان العراقيين لا ينسون ان محمد حسين فضل الله ابدى اهتماما كبيرا بهموم العراقيين، فكان يعتبر نفسه عراقيا اكثر من كونه لبنانيا.
ويرى الشابندر ان السيد فضل الله انتهج المدرسة الواقعية في التعاطي السياسي كذلك في التعاطي الاجتماعي فهو من دعاة حرية المرأة بمنتديات واسعة ونشر دروسا عن الاحاديث والروايات التي تقلل من قيمة المرأة ورفض ذكورية المجتمع، بل جعل من المراة قضية ورمزا.
واكد الشابندر انه من الصعب ان يتوفر بديل لفضل الله في في السنوات القليلة المقبلة.
ونشأ فضل الله في مدينة النجف وبدأ دراسته الدينية في سن مبكر مع والده، ومنذ بلوغه السادسة عشرة تقريباً، تتلمذ على ايدي مراجع دينية معروفة كأبي القاسم الخوئي ومحسن الحكيم ومحمود الشاهرودي.
وعاد الى لبنان عام ١٩٦٦ ليؤسس حوزة علمية عرفت بحوزة "المجلس الشرعي الاسلامي". وفي منتصف ثمانينيات القرن الماضي بات مرجعا لحزب الله عند تأسيسه بعد ان شارك مع غيره من رجال الدين في اللقاءات التى ادت الى تأسيس هذا الحزب.
وتعرض فضل الله لمحاولة اغتيال عام ١٩٨٣ حيث فجرت سيارة مفخخة قرب منزله ما ادى الى سقوط العشرات وقد اتهم فضل الله الولايات المتحدة واسرائيل بالوقوف وراء عملية الاغتيال ردا على تفجير مقر قوات البحرية الامريكية قبل محاولة الاغتيال باشهر.
وفي عام ١٩٩١، وبعد انتخاب عباس الموسوي امينا عاما للحزب خلفا للشيخ صبحي طفيلي، اختلف فضل الله مع حزب الله حول تبنيه مبدأ "ولاية الفقيه" الذي اعتمد اطار العلاقة الوثيقة مع ايران.
وخرج خلاف فضل الله مع حزب الله الى العلن منذ ذلك الحين، ليتحول الى مرجع تقليد مستقل.
وتفرغ فضل الله منذ ذلك الحين للامور الفقهية والدينية حيث كان انتاجه غزيرا، كما ان لديه عدة اصدارات شعرية.
ودأب فضل الله حتى وفاته على اتمام صلاة الجمعة في احد المساجد في الضاحية الجنوبية وقد كانت خطبة الجمعة هذه مناسبة للقائه مع اتباعه واعلان مواقفه السياسية والدينية.
وبدأ فضل الله دراسته للعلوم الدينية والفقه الإسلامي في سن مبكرة جداً. ثم أصبح أستاذاً للفقه والأصول في الحوزة العلمية الكبرى في النجف. غادر فضل الله العراق إلى لبنان في سنة ١٩٦٦، حيث أسس حوزة "المعهد الشرعي الإسلامي" وبدأ يلقي الخطب والمحاضرات وأنشأ عدة جمعيات خيرية ودور للأيتام.

(حين يبارحنا كوكب آخر)

مما لاشك فيه ان رحيل العلامة والمفكر والقائد التنويري الفذ والمثقف آية الله السيد فضل الله، يمثل انعطافة مؤلمة وخسارة ستراتيجية في رصيد الامة الاسلامية والعالم العربي والاوساط الثقافية والدينية التي طالما كانت محافل ومناسبات مفتوحة لمناقشة آرائه الجديدة وفتاواه الجرئية وراؤاه الحية الاستشراقية لما ينبغي ان يكون عليه خطاب المسلمين والبشر بعامة، النهوض والسمو بالوجود الاسلامي والانساني فأسس لمدرسة عميقة الجدور والابعاد منذ انطلاقه من حوزة النجف حتى اكتمال خصائصها التي تمثلت بالمعالجة الواقعية لاشكالات السياسة والمال والمجتمعات مائز بأفق يزخر بالحداثة والعالمية فقد ملأ العالم بمؤلفاته وكتبه وارائه وشعره وطالما كان حلقة الوصل بين المتقاطعين ومحطة التقريب بين الجماعات والمذاهب والتيارات لتكريس الوحدة التي كان معتقدا بها ومرافقاً عنها لينتج وعيا استثنائيا يتسع لان يمتد عقودا من الحياة، وهكذا يغاردنا في ظروف احوج ما تكون لوجوده الراسخ المتجدد حضوره الصادح لكن اسمه وصوته محفوران في ذاكرة الاجيال معلما ومرجعا وقائدا وابا حميما وانا لله وانا اليه راجعون.

نوفل ابو رغيف
كاتب واكاديمي واعلامي

كتب الشعر وهو في العاشرة من عمره وقال عن هذه الابيات: "إنني أتحسس في هذه التجربة أن هناك شيئاً من الوعي للحياة في الانفتاح على المستقبل، فأنا أستذكر أنني كنت أشعر بالمستقبل يناديني بأن أعيش الفضائل... بأن أسمو في درجات العلا... بأن أعيش معزّزاً... كما تمثل هذه الأبيات

فمن كان في نظمِ القريضِ مفاخراً
ففخريَ طُراً بالعُلا والفضائلِ
ولست بآبائي الأباة مُفاخراً
ولست بمن يبكي لأجلِ المنازلِ
فإن أكُ في نيلِ المعالي مقصّراً
فلا رجّعت باسمي حُداةُ القوافلِ
سأنهج نهج الصالحين وأرتدي
رداء العلا السامي بشتى الوسائلِ
وأجهد نفسي أن أعيش مُعزّزاً
وليس طلاَبُ العزِّ سهلَ التناولِ

حركة التنوير الإسلامي بعد فضل اللّه

■ محمد عبد الجبار الشبوط

يثير رحيل الفقيه الامام السيد محمد حسين فضل الله، فضلا عن الحزن كشعور انساني مبرر، تساؤلات كثيرة عن مستقبل حركة التنوير الاسلامي، على الصعيد الاسلامي الشيعي في الاقل، والتي كان من كبار قادتها ومفكريها سوية مع الامام الراحل محمد مهدي شمس الدين، والامام الشهيد محمد باقر الصدر، رضوان الله تعالى عليهم جميعا.
حمل فضل الله لواء التجديد في الاسلام منطلقا من الخطوة الجبارة التي اعلن عنها في وقت مبكر من حياته الفكرية والتي تضمنت فك الاشتباك بين الاسلام، كدين موحى ومعبر عنه في كتاب مقدس منصوص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من جهة، وبين الفكر الاسلامي كجهد بشري، يمثل حصيلة التفاعل الانساني بين النص المقدس الثابت، والواقع الانساني المتغير والمتحول، والقابل للنقد والخطأ والتجاوز من جهة ثانية. موضحا ان التجديد يأخذ معنيين الاول تجديد فهم القرآن، والثاني تجديد الفكر الاسلامي البشري. وانطلق من خلال هذه الخطوة التأسيسية الى خوض معاركه الفكرية على جبهتين، هما:
اولا، جبهة تفسير القرآن برؤية عصرية تلتقي مع منهجية محمد باقر الصدر الذي كان يدعو الى فهم القرآن بناء على قراءة ثانية، تنطلق من ثقافة العصر وما تثيره من اسئلة بوجه المفسر، ويتحرى الجواب عنها من خلال التأمل بالنص القرآني القادر على الانفتاح على ذهنية المفسر بعد توفر انفتاح ذهنية المفسر على ثقافة عصره. معلنا بذلك شرعية اختلاف العصور في فهم القرآن، وشرعية اختلاف المفسرين تبعا لذلك في ذلك. وعليه نصل الى القول بانه اذا كان القرآن نصا الهيا ثابتا، فان تفسيره وفهمه فعل بشري متغير ومتحول.
ثانيا، جبهة انتاج فكر اسلامي يستجيب لمقتضيات العصر وحاجاته واسئلته، بما في ذلك الفقه الاسلامي، بوصفه الجانب الحقوقي من هذا الفكر، من خلال استيعاب العصر اولا، وطرح تساؤلاته على المصادر التأسيسية للاسلام مثل القرآن والسنة والقواعد العامة للشريعة، ثانيا، واكتشاف علاقات جديدة بين النصوص الاسلامية تؤسس بدورها لعلاقات جديدة بينها وبين الواقع المعاش، ثالثا. ولكي تكون هذه الخطوات شرطا لانتاج فكر اسلامي جديد ينطوي على عنصري الاصالة والحداثة في ان.
وكان هذا يتطلب اخضاع البحث الاسلامي الى القواعد العملية المتجددة، والاستفادة من معطيات العصر وانجازاته الفكرية. وفوق هذا كان يتطلب شجاعة نادرة في تجاوز المألوف والمعروف والمتوارث من قواعد الفكر متى ما وجد فيها ما يخالف القواعد الانسانية والعقلية الكبرى التي كان بعضها مخفيا في دائرة اللامفكر فيه، ليقوم بتسليط الضوء عليها والافتاء بما يعتبر خروجا عن الاجماع التقليدي الموروث. اذكر في هذا السياق فتواه في عدم "نجاسة" المشرك نجاسة عينية، لقوله ان الانسان بذاته لا يمكن ان يكون نجسا، كما هي الاعيان النجسة الاخرى، وانما هي "نجاسة معنوية"، تستهدف تنفير المسلم المؤمن من حالة الشرك والكفر، مخالفا في ذلك فتاوى من سبقه من كبار الفقهاء.
السؤال الذي يثيره رحيله عن مستقبل حركة التنوير والتجديد بعده سببه ما تعانيه هذه الحركة من انقطاعات وعدم تواصل بين حلقاتها، لأسباب وظروف خارج سياق هذه المقالة. فقد استشهد محمد باقر الصدر وبقيت مدرسته الفكرية يتيمة لم تجد من يواصلها ويطورها ويبني على مقولاتها، وكذلك الحال مع مدرسة محمد مهدي شمس الدين، التي لم تجد من يفرع على مقولاتها التأسيسية مثل ولاية الامة على نفسها، واليوم نتساءل عن مستقبل التجديد في الفقه الاسلامي بعد رحيل فضل الله.
يكاد الشارع الاسلامي يكون اسير الصراخ العالي الذي ينبعث من البؤر الاصولية والتقليدية المعادية للتنوير والتجديد والتحديث، وغير القادرة على التلاؤم مع عصرها، وغير القادرة على انتاج حداثة اسلامية تتناغم مع العصر، فيما ينكفئ اصحاب النظرة التجديدية والجرأة الفكرية في زوايا ضيقة، حتى لا اقول مظلمة.
لذا يكون رحيل فضل الله بمثابة سقوط لفارس مغوار في معركة لم تحسم نتائجها لصالح معسكره بعد.